سلسلة الثقافة الإسلامية ٤١



ميراثان
في كتاب الله تعالى

الشيخ محمد مهدي الآصفي

مختارات منتقاة من محاضرات ومؤلفات
الشيخ محمد مهدي الآصفي حفظه الله

اسم الكتاب: .... ميراثان في كتاب الله تعالى
المؤلف:... محمّد مهدي الآصفي
الطبعة الأولى: .... ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩م
الكمية.. ٣٠٠٠ نسخة
المطبعة:..................... مطبعة مجمع أهل البيت عليهم السلام النجف الأشرف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾

فاطر: ٣٢

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ
أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾

الأَنبياء: ١٠٥

ميراثان في كتاب الله

في كتاب الله نجد ثلاثة أنواع من المواريث لعباد الله الصالحين: ميراثين في الدنيا وميراثاً في الآخرة.

أما الميراث في الآخرة فهو الجنة، يورثها عباده الصالحين والمتقين من عباده بما عملوا.

وإنما يسميه القرآن «إرثاً» لان الله تعالى خلق الجنة لعباده جميعاً إذا آمنوا وعملوا صالحاً.

ولما حُرِمَ الكفار والمشركون من الجنة بكفرهم وإفسادهم في الأرض فإن الله تعالى خصّ المؤمنين فقط بالجنة، دون الكفار المشركين، وأورثهم الجنة التي كان يستحقها أولئك لو كانوا يؤمنون ويعملون صالحاً.

وقد روي عن رسول اللهﷺ: «ما منكم من أحد إلاّ وله منزلان: منزل في الجنة ومنزل في النار، فإن مات، ودخل النار، ورث أهل الجنة منزله»[1].

١ ـ مجمع البيان ٧: ١٧٨، سنن ابن ماجة ٢: ١٤٥٣ح٤٣٤١.

والإرث هو الجنة، والوارثون هم المؤمنون الذين يرثون الفردوس.

والآيات المباركة في بداية سورة «المؤمنون» تعطي صورة واضحة للوارثين الذين يرثون الجنة. يقول تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ.. * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1].

إذن وراثة الجنة لا تتم إلا بالخشوع في الصلاة، والإعراض عن اللغو، والإنفاق للزكاة والذكر في الصلاة، وحفظ الفروج عن الحرام، وأداء الأمانات والعهود.

وفي سورة مريم آية ٦٣، ورد ذكر التقوى في الأسباب التي تورث الجنة:

﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾.

وفي مواضع أخرى يقرر القرآن الكريم أن الجنة يرثها المؤمنون

١ ـ المؤمنون: ١ ـ ١١.

بأعمالهم:

﴿وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1].

﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2].

فلا ينال المؤمنون الجنة إلا بما قدموا من عمل صالح في الدنيا، والعمل الصالح هو الذي يورث المؤمنين الجنة.

وهذا هو ميراث الصالحين في الآخرة.

وأما في الدنيا فقد جعل الله تعالى للصالحين ميراثين، ميراثاً من الظالمين والجبابرة الطغاة وميراثاً من الأنبياء المرسلين والصالحين من عباد الله.

وفي كتاب الله تعالى إيضاح وتفصيل لهذين الميراثين اللَّذَين يرثهما الصالحون من عباد الله في الدنيا.

وفي هذه الرسالة نتحدث عن هذين الميراثين في كتاب الله:

١ـ **الميراث الأول**: وهو ميراث الصالحين من الظالمين، وهو المال والسلطان والأرض.

١ـ الأعراف: ٤٣.

٢ـ الزخرف: ٧٢.

٢ـ **والميراث الثاني**: ميراث الصالحين من الصالحين والمرسلين، وهو الكتاب، والهدى، والحكمة.

واليك تفصيل هذين الميراثين:

الميراث الأول

الميـراث الأول هـو ميـراث الصـالحين مـن المسـتكبرين، وهـذا الميراث هو السلطان والمال والأرض. يقول تعالى:

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ* وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾[1].

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[2].

﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَؤُوهَا﴾[3].

﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللّهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[4].

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴾[5].

١ـ القصص: ٥ ـ ٦.

٢ـ الأنبياء: ١٠٥.

٣ـ الأحزاب: ٢٧.

٤ـ الأعراف: ١٢٨.

٥ـ الأعراف: ١٣٧.

دورة التاريخ في القرآن

وهذه الجملة من الآيات الكريمة لها دلالات عجيبة في ترسيم سنة الله تعالى في تداول الأيام والقوة والسلطان والسيادة بين الناس، وهي ترسم لنا دورة كاملة للتاريخ في حركته المستمرة الدائبة.

ونلاحظ نحن في هذه الحركة الأصول التالية التي ترسم لنا سنن الله في التاريخ:

١ـ إن القوة والمال تتبعان دائماً الصلاح والتقوى، وكلما صلح قوم آتاهم الله تعالى القوة والسلطان والمال... ـ بعكس ما يتصور الناس عادة من أن الإنسان يكسب القوة والمال بالعدوان والغش والظلم والفساد ـ والقرآن يؤكد كثيراً وفي تعبيرات مختلفة هذا المعنى:

﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ بِمَا صَبَرُواْ﴾

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاء أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا * وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا * وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ

وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾[1].

٢ـ المال والسلطان يعرّضان الإنسان للفساد والطغيان والعُجْب:

﴿كَلاَّ إِنَّ الإنسان لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾[2].

وحريّ بالإنسان أن يتخذ المال والسلطان أداةً وسبباً للشكر والعبودية والطاعة، ولكنّ الإنسان يتخذ من المال والسلطان أداة للفساد والطغيان والعجب والغرور والسكر والإعراض عن الله.

يقول أميرالمؤمنين عليه السلام في أولئك الذين أفسدتهم النعمة والمال والسلطان: «ذلك حيث تسكرون من غير شراب بل من النعمة والنعيم»[3].

ومن عجب أن يسكر الإنسان، ولكن من دون شراب، بل من النعمة والنعيم، وإنها لحري أن تكون سبباً للوعي واليقظة في حياة الإنسان.

٣ـ وإذا فسد الإنسان انتزع الله تعالى منه المال والسلطان، بعد أن يمهله ويمده في الطغيان...

---

١ ـ الأحزاب: ٢٤ ـ ٢٧.

٢ ـ العلق: ٦ ـ ٧.

٣ ـ نهج البلاغة: شرح وفهرسة د. صبحي الصالح ١: ٢٧٧، خطبة ١٨٧.

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا * وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾[1].

وهذه هي نهاية الحضارة وسقوطها، وهي نهاية دورة التاريخ وعندها يأذن الله تعالى بدورة جديدة للتاريخ؛ فإن الأُمم إذا أفسدها المال والسلطان، مدَّ الله تعالى لها في المال والسلطان، استدراجاً لها، وإمعاناً في الاستدراج، فتزداد فساداً وطغياناً، وعند ذلك يسلبها الله ما آتاها من مال وسلطان، مرة واحدة، وينتزع منها ما رزقها من النعمة.

ذلك أنها تتوغل في الفساد ـ حالة الاستدراج ـ وينخر فيها الفساد من الداخل، دون أن يظهر ذلك على السطح المرئي من حياتها، فتفقد الضمير والعاطفة والقيم والأخلاق، وتستولي عليها الأهواء والنزوات، حتى إذا نخرها الفساد من الداخل بشكل كامل، إنهارت مرة واحدة.

لهذا السبب فإن نهاية الدورة الحضارية للتاريخ هو السقوط والانهيار الدفعي المفاجئ، وليس الموت التدريجي، بعكس الحال في ولادة الحضارات ونموها فإنها تتولد وتنمو بصورة تدريجية.

---

١ ـ الإسراء: ١٦ ـ ١٧.

والتعبير القرآني دقيق في هذا الأمر:

﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴾[1].

هكذا: دمرنا مرة واحدة.

﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾[2].

ضحى، وبصورة مفاجئة، حيث يعيش الناس في أمان، لا يتصورون أن يصيبهم في هذا الرخاء شر أو سوء، وهم في غيّهم وغفلتهم سادرون، يلعبون... وفجأةً يأتيهم بأس الله العزيز القهار، فلا ينجو منهم من أحد، ولا يمهل أحداً أبدا.

دورة التاريخ في سورة الأعراف:

والآيات التالية من سورة الأعراف توضح لنا دورة التاريخ هذه وسنن الله تعالى في حركة التاريخ وميلاد وموت الحضارات.

يقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ * ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ آبَاءنَا الضَّرَّاء وَالسَّرَّاء فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ

١ ـ الأعراف: ١٣٧.

٢ ـ الأعراف: ٩٨.

* وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ * أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُونَ * أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾[1].

في بداية الأمر يبتليهم الله، ليتضرعوا إليه تعالى، وليهتدوا، وليأخذوا بأسباب الهداية والنجاة.

وهذه هي مرحلة «الابتلاء» و«التمحيص».

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾.

فإذا اهتدوا، واستقاموا على الطريق فتح الله عليهم بركات من السماء والأرض.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ﴾.

وهذه هي مرحلة الهداية والنعمة. وإن رفضوا الهداية، وتمردوا

١ ـ الأعراف: ٩٤ ـ ٩٩.

فإن الله تعالى يبدلّهم مكان الشدة الرخاء، ومكان البأساء والضراء... النعماء حتى يكثروا وحتى ينسوا الله تعالى.

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ آبَاءنَا الضَّرَّاء وَالسَّرَّاء﴾.

ويطبع على قلوبهم، ويسلبهم العقل والبصيرة والوعي.

﴿وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلَىَ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾[1].

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاء أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ﴾[2].

وهذه مرحلة المكر والطبع على القلوب والاستدراج.

ثم بعد مرحلة المكر والاستدراج تأتي مرحلة الهلاك والدمار وسقوط الحضارة الكامل والمفاجئ.

﴿فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾.

لاحظوا: «بغتة»، مرة واحدة، وبصورة مفاجئة وهم لا يشعرون.

---

١ ـ الأعراف: ١٠١.

٢ ـ الأعراف: ١٠٠.

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُونَ * أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

وهذه مرحلة «الهلاك» و«المحق».

دورة التاريخ في نهج البلاغة:

وفي الخطبة «القاصعة» من كلام الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام نجد تصويراً دقيقاً لهذه المراحل الثلاثة التي يحددها القرآن الكريم لحركة التاريخ:

١ ـ مرحلة ميلاد الحضارات.

٢ ـ مرحلة الفساد والاختلال.

٣ ـ مرحلة سقوط الحضارة.

فيضرب لنا الإمام عليه السلام مثلا بحضارة بني إسرائيل في عصر فرعون وعند قيام رسول الله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام.

يقول عليه السلام: «وتدبروا أحوال الماضين من المؤمنين قبلكم كيف كانوا في حال التمحيص والبلاء:

ألم يكونوا أثقل الخلائق أعباءً، وأجهد العباد بلاءً، وأضيق أهل

الدنيا حالا!؟.

إتخذتهم الفراعنة عبيداً، فساموهم سوء العذاب، وجرعوهم المرار، فلم تبرح الحال بهم من ذل الهلكة وقهر الغلبة، لا يجدون حيلة في امتناع، ولا سبيلا إلى دفاع»[1].

وهذه هي مرحلة الابتلاء والتمحيص التي تهيئ الأُمّة للصلاح والاستقامة، ولابدّ لكل استقامة وصلاح في حياة الأُمم من المرور بمرحلة من الأِبتلاء والتمحيص، الذي يُعِدُّ الأُمّة للاستقامة والعودة إلى الله تعالى.

ولم نتحدث نحن عن هذه المرحلة في رسم دورة التاريخ في هذا الحديث، كما لم نتحدث نحن عن مرحلة الاستدراج بصورة مستقلة.

ثم يقول عليه السلام: «حتى إذا رأى الله جدّ الصبر منهم على الأذى في محبته، والاحتمال للمكروه من خوفه، جعل لهم من مضائق البلاء فرجاً، فأبدلهم العز مكان الذل، والأمن مكان الخوف، فصاروا ملوكاً حكاماً، أئمة أعلاماً، قد بلغت الكرامة من الله لهم ما لم تبلغ الآمال بهم.

١ ـ نهج البلاغة، الخطبة القاصعة ١: ١٧٧.

فانظروا كيف كانوا حيث كانت الأملاء مجتمعة، والأهواء متفقة، والقلوب معتدلة، والأيدي مترادفة، والسيوف متناصرة، والبصائر نافذة، والعزائم واجدة، ألم يكونوا أرباباً في أقطار الأرضين وملوكاً على رقاب العالمين!؟»[1].

وهذه هي **المرحلة الأُولى** من الدورة الحضارية للتاريخ، مرحلة ولادة الحضارة الإلهية ونشوئها.

ثم يحدثنا الإمام عن **المرحلة الثانية** حيث يبدأ الفساد يدبّ في جسم هذه الحضارة، وينخر في هذه الحضارة من الداخل، وتتحول نعم الله تعالى من جسور للارتباط بالله تعالى إلى حُجُب وحواجز، تحجب الإنسان، وتحجزه عن الله، فيلهو باللعب واللهو والسكر، وينسى نفسه، وتتحكم فيهم الأهواء، ويكثر فيهم الخلاف، وتختلف لديهم الآراء والأهواء.

يقول عليه السلام: «فانظروا إلى ما صاروا إليه في آخر أمورهم حين وقعت الفتنة، وتشتتت الألفة، وتشعبوا مختلفين، وتفرقوا متحاربين»[2].

١ ـ المصدر السابق.
٢ ـ المصدر السابق.

ثم يتحدث الإمام بعد ذلك عن المرحلة الثالثة: مرحلة السقوط والانهيار، حيث يسلبهم الله تعالى نعمه كلها، ويفاجئهم بغضبه وبأسه ضحى وهم يلعبون:

«قد خلع الله عنهم لباس كرامته، وسلبهم غضارة نعمته، وبقي قصص أخبارهم فيكم عبرة للمعتبرين»[1].

وهذه المحنة الأخيرة، ليست من نوع «ابتلاء التمحيص» الذي كان يختص المؤمنين من عباد الله، والذي كان يعد الأُمّة لميلاد حضاري جديد... وإنما هو نوع آخر من المحنة يعبر عنها القرآن الكريم بـ «المحق» في مقابل التمحيص، وهو يخصّ الحضارات الفاسدة.

﴿**وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ**﴾[2].

وكلاهما من المحنة إلا أن أحدهما محنة للتمحيص والتزكية والتطهير والآخر محنة للمحق والهلاك والتدمير.

حرية القرار:

ولابدّ أن نشير في هذه النقطة من الحديث إلى مسألتين هامتين، لهما علاقة مباشرة بهذه الدورة الحضارية في التاريخ:

---

١ ـ المصدر السابق.

٢ ـ آل عمران: ١٤١.

المسألة الأُولى:

إن دور الصلاح والتقوى في انتعاش الحالة المادية للامة قضية حتمية يقول تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ**﴾.

كما أن سقوط الحضارات وموتها وانهيارها بانتشار الفساد والأخلاق في الأُمم قضية حتمية، في هذا المسير، ومن سنن الله الثابتة التي لا تتبدل، وليس للإنسان أن يغيّر هذه الحتميات التاريخية والسنن الإلهية في حركة الحضارة ودورة التاريخ.

إنها تشكل الشطر الحتمي من دورة التاريخ، وتفعل وتؤثر بصورة حتمية ثابتة في حياة الإنسان، دون أن تتبدل أو تتغير أو تتحول.

فاستمع إليه تعالى في آياته البينات حيث يقول:

﴿**سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا**﴾[1].

﴿**وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً**﴾[2].

﴿**وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً**﴾[3].

---

١ ـ الأحزاب: ٣٨.

٢ ـ الأحزاب: ٦٢.

٣ ـ فاطر: ٤٣.

﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾[١].

إلا أن حتمية هذه العوامل في حركة التاريخ لا تعني حتمية حركة التاريخ... فإن حركة التاريخ في النظرية الإسلامية ليست حركة حتمية، وإنما هي تابعة لتحرك الإنسان وتوجهه.

وذلك أن شطراً آخر من الأجزاء المؤثرة في تحريك التاريخ والحضارة من صنع الإنسان وإرادته، وهو حركة الإنسان نحو الصلاح أو حركته نحو الفساد.

إن تحرك الإنسان بهذين الاتجاهين خاضع لاختيار الإنسان بشكل كامل، وان كان للابتلاء والتمحيص دور مساعد معروف في توجيه الإنسان إلى الصلاح، وللمال والسلطان دور مساعد معروف في إغراء الإنسان بالفساد.

لكن الإنسان يبقى مع ذلك كله، صاحب القرار في الصلاح والفساد والاستقامة والضلال، وتبقى له حرية اتخاذ القرار والتوجه في هذا الأمر بشكل كامل.

وحركة الإنسان نحو الصلاح أو الفساد مفتاح لكل الدورة التاريخية والحضارية في حياة الإنسان وتفسير لكل التحولات

١ ـ الإسراء: ٧٧.

الحضارية التي تحدث للإنسان.

وقد أعطى الله تعالى هذا المفتاح بيد الإنسان، يتصرف به باتجاه الهدى أو الضلال.

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[١].

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[٢].

وهذه الحرية في اتخاذ القرار والتحرك باتجاه الصلاح أو الفساد تعطي الإنسان دوراً فاعلا في صنع التاريخ.

وبهذا التوضيح نجد أن النظرية الإسلامية تختلف، اختلافاً جوهرياً عن نظرية «الحتمية التاريخية» التي تتبناها المادية التاريخية... إن دورة الحضارة وحركة التاريخ تجري في نظرية المادية التاريخية بصورة حتمية، لا يستطيع الإنسان أن يغيّرها.

أمّا في النظرية الإسلامية في حركة التاريخ، فإن الإنسان هو العنصر الفاعل المحرك للتاريخ، وبيده مفتاح حركة دورة التاريخ، ويتمتع في هذه الحركة الفاعلة بكامل حريته في اتخاذ القرار وفي التوجه والتحرك.

١ ـ البلد: ٨ ـ ١٠.

٢ ـ الإنسان: ٣.

الدور الفاعل والمسؤول للإنسان في حركة التاريخ:

ليس الإنسان إذن خشبة عائمة في مجرى التاريخ مسلوب الإرادة والاختيار... وإنما يعتبر الإنسان في هذه المسيرة الحضارية عنصراً فاعلا ومسؤولا.

ومركزه في التاريخ مركز التغيير والقيادة، والى هذه الحقيقة يشير القرآن الكريم:

﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[1].

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[2].

إن هاتين الآيتين تشيران إلى المركز والدور التغييري الفاعل للإنسان في حركة التاريخ، وأن حركة التاريخ تابعة لإرادة الإنسان واختياره، وليس العكس.

ولا يمنع من هذه الحقيقة إطلاقاً الشطر الحتمي من قوانين التاريخ وسننه، إذا كان هذا الشطر هو المنفعل تجاه إرادة الإنسان.

١ ـ الرعد: ١١.

٢ ـ الأنفال: ٥٣.

والآية الكريمة تتألف من حقيقتين:

حقيقة حتمية لا سبيل للإنسان إلى تغييرها وتبديلها، وهي الجزء المتعلق بإرادة الله تعالى بتغيير الأوضاع المادية والمعيشية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية للامة.

و**حقيقة إختيارية** تابعة لإرادة الإنسان وهي الجزء المتعلق بإرادة الإنسان لتغيير نفسه، والذي يستتبع بشكل ضروري التغييرات الحتمية من القسم الأول.

العلاقة بين الجانب المادي والمعنوي من حياة الإنسان:

المسألة الثانية ـ التي لابدّ أن نشير إليها بهذا الصدد ـ:

العلاقة الوثيقة بين الشطرين المعنوي والمادي من حياة الإنسان، فليس هذان الشطران من الحياة أجنبيين عن بعض، كما يتصور بعض الناس، بل هما مرتبطان ببعض إرتباطاً وثيقاً. والجانب المعنوي من شخصية الإنسان والأُمّة يؤثر تأثيراً مباشراً وقوياً في الجانب المادي، ولا يصح فصل هذين الجانبين عن بعض، ولا يصح تجزئة شخصية الإنسان والأُمّة إلى جزئين منفصلين، لا علاقة بينهما. يقول تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء

وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾.

ولكل منهما تأثير على الطرف الآخر، إلا أن الجانب المعنوي يبقى هو الأساس لشخصية الإنسان، بعكس النظرية المادية التي تنفي وجود أي تأثير للجانب المعنوي من شخصية الفرد أو الأُمّة على الجانب المادي، إن لم يكن الأمر بالعكس: أي أن يكون الجانب المادي هو الذي يؤثر على الجانب المعنوي.

الولادة الجديدة:

تنتهي عند هذا الحد دورة التاريخ عبر مراحل الولادة، والمعاناة، والابتلاء، والاستقامة، والنعمة، والاستدراج، والمحق والهلاك.

إلا أن الله تعالى لا يُبقي حركة التاريخ عاطلة، فيبعث سبحانه وتعالى هذه الحركة في حياة الإنسان على وجه الأرض من جديد، بولادة جديدة لامة يختارها الله تعالى لاحتضان رسالته وحملها إلى البشرية بين سائر الأُمم.

وهذه سنة من سنن الله تعالى؛ لئلا تتعطل حركة التوحيد على وجه الأرض، ولا تنتهي هذه الحركة بمحق الأُمم وهلاكها.

والأُمّة الجديدة التي يختارها الله تعالى لاحتضان رسالته وحملها

إلى البشرية تتحرك على نفس النهج السابق من السنن الإلهية.

وهذا النهج يتلخص في حركتين حركة صاعدة وحركة دائرية.

والحركة الصاعدة هي الحركة التي ترتفع بالأُمّة إلى الله تعالى في مسيرة تصاعدية إبتداءً بولادة الأُمّة واستخلافها، ثم التعرض للابتلاء والمعاناة ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ ثم الاستقامة والتقوى، والاستقامة والتقوى يستتبعان للمال والسلطان، والمال والسلطان دور مباشر في إثارة الذكر والشكر والعرفان بالجميل في القلوب والنفوس السليمة، وكل ذلك من عوامل التقوى وأسباب الصعود والقرب إلى الله تعالى.

ومن خصائص الشكر أنه يزيد من نعمة الله تعالى «المال والسلطان والعافية» ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾[١]. وزيادة المال والسلطان والعافية تصعد درجة الشكر والذكر في النفوس والقلوب السليمة، وهكذا يتسلسل الإنسان في حركة تصاعدية إلى الله.

وهذه هي حركة الإنسان التصاعدية إلى الله تعالى. وإلى جنب هذه الحركة يوجد نوع آخر من الحركة وهي الحركة الدائرية.

وقد شرحنا مراحل هذه الحركة من قبل.

---

١ ـ إبراهيم: ٧.

ولادة، ثم ابتلاء، ثم استقامة وتقوى، ثم ينعم الله على هذه الأُمّة بالمال والسلطان، فيشيع المال والسلطان الغرور والطغيان «في النفوس والقلوب المريضة»، ثم استدراج، ثم هلاك ومحق، ثم يبدأ التاريخ دورته من جديد.

وهاتان حركتان للأُمم وللجماعات. أمّا حركة الأفراد إلى الله فلها شأن آخر وحديث آخر، لا يدخل في صلب بحثنا الآن.

ونستطيع أن نلخص هذه الحركة بكلمتين «الصعود إلى الله والسقوط».

وكل من الصعود والسقوط يجري بموجب سنن إلهية حتمية لا تتخلف، وللإنسان الخيار في إختيار هذه الحركة أو تلك، وليس من عامل جبري يحتم على الإنسان إختيار إحدى هاتين الحركتين بالخصوص. وهذا الاختيار هو أساس «المسؤولية» في حياة الإنسان، ولولا هذا «الاختيار» لم يتحمل الإنسان أية مسؤولية عن سلوكه ومواقفه.

إلاّ أن النتائج المترتبة على هذه الحركة أو تلك التي يختارها الإنسان نتائج حتمية لا تتغير ولا تتبدل ﴿**وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً**﴾.

الاستبدال:

ونعود الآن إلى حديث الولادة الجديدة للتاريخ.

بعد كل محق وهلاك ولادة جديدة في التاريخ، وهذه الولادة الجديدة تتلخص في استخلاف الله تعالى لإحدى الأُمم محل الأُمّة الهالكة وإيراثها المال والسلطان الذي خلفته الأُمّة الهالكة بعد هلاكها وسقوطها، فلا تتعطل سنن الله تعالى ولا تتعطل حركة الإنسان إلى الله تعالى. وهكذا تستمر هذه الحركة، وتتصل حلقاتها عبر العروج والسقوط والتعثر، إلى أن يلتقي الله تعالى.

يقول تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الإنسان إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقيه**﴾[1].

١ ـ هذه الآية الكريمة تشير إلى معنى لطيف ودقيق. فليس المقصود بالإنسان في هذه الآية «الفرد»؛ فليس كل فرد يلقى الله تعالى، وليس كل فرد يكدح إلى الله. والآية الكريمة صريحة في المعنيين معاً، الكدح ولقاء الله: ﴿**إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيه**﴾.
وتفسير لقاء الله بالموت تفسير غير دقيق؛ فليس كل من يموت يلقى الله تعالى، ففي «لقاء الله» من السمو والعلو ما ليس في الموت، وهل يصح أن يكون في موت المجرمين «لقاء الله» تعالى بما تحمل هذه الكلمة من رقة وسمو، وليس كل من يموت يكدح إلى الله كدحاً، وما أكثر ما يموت الناس وهم لم يعرفوا الله ولم يكدحوا إليه عز شأنه طرفة عين، فلا يجوز إذن أن يكون المقصود من الإنسان «الفرد»، ولا يصح أن يكون المقصود من الإنسان الأمم والجماعات؛ فما

وعن هذه الولادة الجديدة يعبر القرآن الكريم بثلاث تعبيرات، وهي تعبيرات دقيقة وبليغة في تفهم سنن الله تعالى.

وهذه التعابير هي:

«الاستبدال» و«الاستخلاف» و«الإرث». يقول تعالى:

﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً﴾[1].

﴿إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾[2].

أكثر الأمم والجماعات التي تعثّرت وسقطت وهلكت دون أن تلتقي الله تعالى.

إذن التفسير الوحيد لهذه الآية الكريمة، والله عز شأنه أعلم بمراده، إن مسيرة الإنسان تنتهي إلى الله تعالى بعد كدح طويل وبعد سقوط الكثيرين، وإن هذه القافلة بمجموعها ومجملها ومن خلال تاريخها الطويل عبر الأجيال والأمم تنتهي في حركة صاعدة إلى الله تعالى، ولن يضر بهذا المعنى سقوط الأفراد والجماعات والأمم خلال المسيرة.

تماماً كما لو كان المعلم يخاطب تلاميذه في بدء رحلة التعليم إنكم تنتهون في دراستكم إلى الدراسات الجامعية العليا، إذا كانت غاية الطلبة هي الوصول إلى التخصص في الدراسات العالية، ولن يضر ذلك تعثر مجموعة من الطلاب وسقوطهم وتركهم للدراسة. وكذلك مسيرة البشرية وإن كانت تتعثر في حركتها بين العروج والسقوط، ومهما كثر السقوط في حياة الإنسان وتاريخه الطويل فإن عاقبة هذه المسيرة هي لقاء الله.

إن الفلاح يزرع البرتقال لتثمر البرتقال ويعلم أنها سوف تثمر وإن كان بعض هذه الأشجار يذبل أو يموت أو يثمر أو لا يثمر.

١ ـ الإنسان: ٢٨.

٢ ـ التوبة: ٣٩.

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاء﴾[1].

﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئًا﴾[2].

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[3].

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[4].

﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَؤُوهَا﴾[5].

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾[6].

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ﴾[7].

﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[1].

---

١ ـ الأنعام: ١٣٣.

٢ ـ هود: ٥٧.

٣ ـ النور: ٥٥.

٤ ـ الأنبياء: ١٠٥.

٥ ـ الأحزاب: ٢٧.

٦ ـ الأعراف: ١٣٧.

٧ ـ الزمر: ٧٤.

﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾[٢].

وهذا هو الميراث الذي ذكرناه في هذا العنوان، ميراث المؤمنين من الطاغين والمستكبرين، وهو المال والقوة والسلطان والأرض.

والله تعالى يختار بعد هلاك الظالمين أمة من بين سائر الأُمم ليحمّلها مسؤولية النهوض برسالة التوحيد وتبنّيها واحتضانها وإبلاغها إلى سائر الأُمم، ويورثها ما خلفه الظالمون والمستكبرون من بعدهم من مال وسلطان وأرض.

الأمّة التي يختارها الله للميراث:

أمّا لماذا يختار الله تعالى لرسالته أمة دون أخرى من سائر الأُمم، وتتحمل هذه الأُمّة دون سائر الأُمم مسؤولية النهوض واحتضان الرسالة وتبنيها والدفاع عنها وحملها إلى سائر الأُمم... فهو شأن من شأن الله عزّوجل، وبالتأكيد له سبب وحكمة، نسأل الله تعالى أن يشرح صدورنا له، ولعلنا نجد في هذه الآية المباركة مفتاحاً لفهم هذه الحقيقة:

١ ـ الشعراء: ٥٩.

٢ ـ الدخان: ٢٨.

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[١].

والآية الكريمة هذه تشير إلى ولادة هذه الأُمّة، وقد إختار الله تعالى عرب الجزيرة دون سائر الشعوب لحمل هذه الرسالة.

ويعبر عنهم القرآن الكريم بـ ﴿الأُمِّيِّينَ﴾.

وقد كان يحكم الأرض في تلك الفترة ﴿فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ﴾[٢] حضارتان جاهليتان عريقتان قد ورثتا المواريث الحضارية للحضارات الجاهلية السابقة عليها كالهندية والإغريقية والبابلية والأكدية والسومرية وغيرها.

وهاتان الأُمّتان الجاهليتان «الفارسية والرومانية». كانتا بحكم هذا العمق الحضاري قد تشبعتا بالأفكار والمفاهيم والقيم والأعراف الجاهلية، وتلوثت أفكارهم وقلوبهم بها، ولم يكن من السهل تجريدهم وتخليصهم عنها ليحملوا رسالة الله تعالى نقيّة صافية إلى البشرية.

١ ـ الجمعة: ٢.

٢ ـ المائدة: ١٩.

والعرب في قلب الصحراء ـ لطبيعة موقعهم الجغرافي ـ كانوا معزولين عن هذه المؤثرات الحضارية.

والتعبير القرآني دقيق وبليغ ﴿**فِي الأُمِّيِّينَ**﴾ والأُمّي منسوب إلى الأُم، وكأنهم قد ولدوا لتوهم من بطون أمهاتهم لا يعرفون شيئاً ﴿**وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا**﴾[1].

وليس معنى ذلك أن العرب كانوا في الجاهليّة على الفطرة، ولم تتلوث فطرتهم، وإنما نقصد أن الجاهلية العربية لم تكن ذات عروق ضاربة في عمق الحضارات الجاهلية، وبتعبير آخر كانت الجاهلية العربية جاهلية غير متحضّرة ولا تحمل عمقاً حضارياً، كما كانت الجاهلية الرومانية والفارسية.

ولهذا السبب كانت البيئة العربية في الصحراء أكثر تهيؤاً لقبول هذه الرسالة واحتضانها وتبنيها وحملها إلى البشرية.

قد يكون هذا هو السبب في إختيار الله تعالى الجزيرة العربية منزلا أولا للوحي دون سائر الأوساط والبيئات.

ومهما يكن من أمر فإن حركة التاريخ والتوحيد لا تتعطل، وإنما

---

١ ـ النحل: ٧٨.

يختار الله لها من بين الأُمم أمة يورثها ميراث الظالمين، ويبعث فيهم رسولا، ويستخلفهم محل الذين ظلموا وأهلكهم الله بظلمهم.

وهذه الأُمّة الفتية التي يبعثها الله تعالى من بين سائر الأُمم هي التي ترث مواريث الظالمين من مال وسلطان وقوة وأرض، وتحل محلهم، وتتولى السيادة على وجه الأرض.

﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ**﴾.

وهذا هو الميراث الأول من ميراث المؤمنين، وهو ميراث المؤمنين من الظالمين.

ﮋﮊ

الميراث الثاني

وأمّا ميراث المؤمنين من سلفهم، من الأنبياء والصديقين والصالحين فهو عبودية الله، ومنطلقاتها، وأحكامها، وقيمها، وأخلاقها.

وهذا الميراث ينتقل من جيل ليسلمه إلى الجيل الذي يأتي من بعده.

والقرآن الكريم يشير في اكثر من موضع إلى هذا الميراث الحضاري، يقول تعالى:

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾[1].

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾[2].

إن هذا الميراث ليس ميراث المال والسلطان، وإنما هو ميراث الهدى والبينات والكتاب والعبودية والقيم والأخلاق، ميراث يحفظه قوم ويضيعه قوم آخرون.

وليس بقليل الأقوام الذين ضيعوا هذا الميراث واستبدلوا بالصلاة الشهوات. يقول تعالى:

١ ـ فاطر: ٣٢.

٢ ـ غافر: ٥٣.

﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا * فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾[1].

وحدة المسيرة الربانية على وجه الأرض

ولا يتكون هذا الميراث الحضاري مرة واحدة وإنما يتكون، ويقوى، ويتسع تيارها، ويتأصّلّ اكثر في الأرض، وفي نفوس المؤمنين كلّما يمر به جيل أو يمتد به الزمن.

وهذا الميراث العقائدي والحضاري الكبير يشمل الإيمان بالله، والرسول، والولاء، لله وللرسول ولأوليائه، والأخلاق، والقيم، والسلوك، والحب، والبغض، والأعراف، والتقاليد، حتى المصطلحات، والشعارات... وهي تنتظم في حقول من حياة الإنسان.

وليس من الممكن إطلاقاً أن تتكون كل هذه الكنوز العقائدية والحضارية في حياة الجيل مرة واحدة... وإنما تتحول من جيل إلى جيل، يستلمها كل جيل، ليسلّمها إلى الجيل اللاحق.

١ ـ مريم: ٥٨ ـ ٥٩.

وخلال هذا الانتقال والعبور عبر الأجيال يزداد هذا الميراث عمقاً وأصالة ورسوخاً ووضوحاً.

ونحن نلاحظ في القرآن هذا التماسك والارتباط بين أجزاء ومراحل هذه المسيرة العقائدية والحضارية الكبرى، ونلاحظ تأكيد القرآن على الارتباط بهذه المسيرة، بشكل عام ومن دون تفرقة، وأنّ هذه المسيرة بمجموعها هي الإسلام، ولن يقبل الله غيره من الإنسان.

﴿قُلْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[1].

﴿قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ ، وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * صِبْغَةَ اللّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ

١ ـ آل عمران: ٨٤ ـ ٨٥.

عَابِدونَ﴾[1].

وليس معنى ذلك أن نأخذ نحن اليوم ديننا من التوراة والإنجيل... وإنما المقصود أن هذه المسيرة مسيرة واحدة، وأننا نؤمن بالله والأنبياء جميعاً، لا نفرق بينهم، وأن حلقات هذه المسيرة مترابطة ومتماسكة، وأن هذه المسيرة التي تمر عبر الأجيال والقرون هي الإسلام الذي لا يرتضي الله للإنسان غيره ديناً.

ومن يرتبط بهذه المسيرة الربانية على وجه الأرض فقد اهتدى، ومن تولى عنها فهو في شقاق وحرب، وليس بينهما فاصل وبرزخ.

وهذه المسيرة هي الصبغة الإلهية التي يجب أن تصبغ حياة الإنسان وتاريخه، وعقله، وعواطفه، وسلوكه، وتحركه، وسلمه، وحربه، بلونها الخاص.

وأن للحضارة الربانية التي يتوارثها المؤمنون في الأرض لوناً خاصاً ومتميزاً عن سائر الألوان الجاهلية.

فاقرأ هذه الآيات المباركات من سورة الأنعام:

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ

١ ـ البقرة: ١٣٦ ـ ١٣٨.

رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ * وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * ذَلِكَ هُدَى اللّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[1].

أرأيت كيف يتماسك أطراف هذا الميراث الإلهي الكبير، وتتجاذب أجزاؤه وترتبط مراحله ببعض، وكل نبي يرث هذا الميراث من نبي مرسل قبله، وكل أمة من المؤمنين ترث هذا الميراث من أمة مؤمنة قبلها.

رسالة واحدة، وهدى واحد، وولاء واحد، وشريعة واحدة، وحب واحد، وسلم واحد، وحرب واحدة وخُلُق واحد، وصبغة واحدة،

---

١ ـ الأنعام: ٨٣ ـ ٩٠.

وإسلام واحد... وعناء واحد، وابتلاء واحد، ومحنة واحدة من لدن آدم(عليه السلام) إلى إبراهيم(عليه السلام) إلى رسول الله(صلى الله عليه وآله).

ثم بعد استعراض سريع لمسيرة النور والهدى هذه يقول تعالى لنبيه(صلى الله عليه وآله): ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾.

تعميق الإحساس بالوراثة

يحرص القرآن الكريم على تعميق مفهوم الوراثة بشكل خاص في نفوس المؤمنين... ويصوّر المسيرة الإلهية للحضارة مسيرة واحدة ذات حلقات مترابطة، متماسكة، يشدّ بعضها بعضاً ويخلف اللاحق منها السابق.

والأنبياء(عليهم السلام) في هذه المسيرة يؤكدون دائماً على وحدة المسيرة، ووشائج القربى التي تربط القيّمين على هذه المسيرة الربانية. وكل نبي يأتي يصدّق من قبله من الرسل والأنبياء، ويؤكّد أنّ هذه المسيرة الربانية مسيرة واحدة، لا تعدد فيها، وهي الإسلام، ولن يقبل الله تعالى غيره ديناً.

﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن

بَعْد مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾[1].

﴿قُلْ آمَنَّا بِاللّه وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاط وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَد مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

فليس في هذه المسيرة تعدد ولا اختلاف، وان اختلفت مراحلها، إلاّ أن الخط واحد والمسيرة واحدة والغاية واحدة.

ويرتبط المؤمنون السائرون على هذه المسيرة الربانية الواحدة على اختلاف العصور... بصلات قربى وشيجة، فيكون بعضهم من بعض، وهم جميعاً يشكّلون أُسرة توحيدية واحدة في الأرض، ويرتبط أعضاء هذه الأُسرة ببعض بأوثق الصلات والوشائج.

تأملوا في هذه الآية الكريمة في نهاية سورة الحج:

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّه حَقَّ جِهَاده هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّين مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلمينَ من قَبْلُ وَفي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾[1].

وترسم لنا هذه الآية العجيبة المسيرة الحضارية التي تَوَلّى القيمومة عليها من قبلنا أبونا إبراهيم‰، ثم كان رسول الله‰ على هذا الخط شهيداً وقيّماً على الناس فيما بعد، ونحن اليوم شهداء في هذا الخط على الناس.

وقوام هذا الخط إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والاعتصام بحبل الله... والله تعالى هو مولانا يتولى أمورنا جميعاً.

وتستوقفنا هذه الكلمة القرآنية العجيبة طويلا ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ إنها ليست بأُبوة نسب، فأيّة أُبوة هذه التي يذكرها القرآن. إنها أبوة الحضارة الإلهية على وجه الأرض، وأبوة أُسرة التوحيد، ونحن اليوم أبناء إبراهيم‰ وورثته، وميراثنا منه هو إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والاعتصام بحبل الله.

التصادق والتجاوب بين رسالات الله:

وشاهد الصدق على وحدة الخط، ووحدة الميراث، ووحدة

١ ـ آل عمران: ١٩.

١ ـ الحج: ٧٨.

الحضارة، ووحدة القيم، ووحدة أسرة التوحيد في التاريخ... التصادق الموجود في مراحل الخط المختلفة... فكلّ نبي يأتي يصدّق من قبله من الأنبياء، ورسول الله ﷺ وخاتم الأنبياء يصدّق كل من جاء قبله من الأنبياء والمرسلين من دون استثناء، ومن دون تفريق.

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[1].

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعَيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ.. وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[2].

إن هذا التجاوب والتصادق لأطراف مسيرة طويلة عميقة في التاريخ يكشف عن وحدة المسيرة ووحدة المنطلق والغاية فيها.

إن الإحساس بوحدة المسيرة ووحدة أسرة التوحيد يجعل إرتباط الإنسان المؤمن بهذه المسيرة وبهذه الأُسرة إرتباطاً وثيقاً قوياً، لا يصدر عن العقل فقط، وإنما يصدر عن العقل والعاطفة.

---

١ ـ آل عمران: ٣.

٢ ـ المائدة: ٤٦ ـ ٤٨.

وكلما يقوى إنشداد الإنسان بهذا الخط والتراث والأُسرة الإلهية يكون أقدر على حماية نفسه من الانزلاق في مزالق الهوى والشهوات.

إن إحساسه بالارتباط بأسرة التوحيد، وأنه فرع من هذه الشجرة الباسقة الضاربة في أعماق التاريخ، وليس نبتة طارئة، مجتثة من فوق الأرض مالها من قرار... هذا الإحساس يعطي الإنسان كثيراً من الحصانة والمناعة تجاه المغريات والشهوات، ويحجبه من مصايد الشيطان وكيده ومن شراك الشجرة الخبيثة في التاريخ التي تحاول أن تلتف على هذه الشجرة الطيبة، وتقتلعها من جذورها.

عقبات الطريق

إن طريق الدعوة إلى الله تعالى طريق عسير صعب، وليس في مسالك الإنسان طريق أصعب وأشق منه.

والذين تساقطوا على هذا الطريق أو تخلفوا عنه، أو ضاعوا وتاهوا كثيرون، لم يتمكنوا من مواصلة السّير على الطريق رغم إستقامة الطريق ووضوحه.

والعاملون على هذا الطريق من الدعاة إلى الله يتعرضون كثيراً لمتاعب الطريق ومخاطره ومزالقه، واكثر ما يحيط العاملين في سبيل

الله والدعاة إلى الله من مخاطر ومتاعب في هذا الطريق اثنان: الضياع والتعب.

مخاطر (الضياع) و(الضلال) و(التّيه)، **أوّلاً**.

ومخاطر التعب واليأس والخوف و(إيثار الراحة والعافية) و(حب الدنيا) و(التقاعس) و(التخلف)، و(قصر النظر في العمل) و(الكسل) و(ضعف النفس) و(الشحّ) **ثانياً**.

هذه العقبات هي أهم أسباب تخلف الناس وتساقطهم أثناء الطريق... والشيطان يعمل أولاً لتضليل العاملين وإيقاعهم في الغواية والشك والضلال. فإذا تم له تحقيق هذه الغاية فقد حقق كلّ ما يريد، وإن لم يتوفق في ذلك، بدأ بالدور الثاني من مهمته بإلقاء اليأس والخوف والضعف وحب الدنيا وإيثار العافية في نفوس العاملين.

وإذا قدر للدعاة إلى الله النجاة من الشَّرَك الأول للشيطان فان الشيطان يمد لهم الشَّركَ الثاني في هذه المرحلة، وقليل من العاملين من يستطيع أن يجتاز في هذه المرحلة «عوائق الطريق» ويمضي مستمراً في سيره، متكلا على الله القوي العزيز.

وإذا كان الداعية يحتاج في المرحلة الأُولى لاجتياز التضليل

والتعمية والتلبيس إلى هدى وبصيرة من الله تعالى، فإنه يحتاج في المرحلة الثانية لاجتياز العوائق إلى دعم وتثبيت من الله تعالى، والى معية الله عزّوجل المستمرة له عند كل منعطف ومزلق في الطريق، وألاّ يكله الله تعالى إلى نفسه طرفة عين، فإن الله عزّوجل إذا أوكل عبده إلى نفسه طرفة عين كان من الهالكين والساقطين.

والى هاتين المنحتين الإلهيتين «الهدى والمعيّة الإلهية» تشير الآية ٦٩ من سورة العنكبوت:

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

الذين يجاهدون في سبيل الله، ويعطون من أنفسهم وذويهم وأموالهم لله تعالى، يعينهم الله تعالى في أمرين:

١ـ الدلالة والهداية والبصيرة والوعي والفقه والتمييز بين الحق والباطل.

وهذه هي المنحة الإلهية الأُولى، ولو لا أن الله تعالى يرزق المجاهدين من عباده، بصيرة في دينهم، وهدى، ووعياً، وفقها في الدين، لتاه من هؤلاء الكثيرون في متاهات الطريق والمسالك.

٢ـ التثبيت والدعم والتطمين والتأييد.

ونبدأ الحديث عن العقبة الأُولى.

العقبة الأُولى: الضلال وإنعدام الرؤية:

إن الطريق إلى الله صراط مستقيم ليس فيه أمت ولا عوج بالتأكيد.

ولكن سلطان الهوى في نفس الإنسان هو الذي يعمي الإنسان عن الحق ويدفع الإنسان إلى متاهات الضلال والضياع، ويلبس الحق بالباطل والباطل بالحق، ويبعث في نفس الإنسان الشك والريب، ويسلبه اليقين والوضوح.

الهدى والهوى

يقول الشاطبي: «قد جعل الله اتباع الهوى مضاداً للحق وعدّه قسيماً له كما في قوله تعالى:

﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ..﴾.

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾.

وقال في قسيمه: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾.

وقال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى *إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾.

فقد حصر الأمر في شيئين: الوحي وهو الشريعة، والهوى، فلا ثالث لهما. وإذا كان كذلك فهما متضادان، وحين تعين الحق في الوحي، توجه للهوى ضده، فاتباع الهوى مضاد للحق.

وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾.

وقال: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ﴾.

وقال: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ﴾.

وتأمل فكل موضع ذكر الله تعالى فيه الهوى فإنّما جاء به في معرض الذم له ولمتبعيه... فهذا كله واضح في أن قصد الشارع الخروج عن اتباع الهوى والدخول تحت التعبّد للمولى»[1].

وعندما يلتبس الأمر على الإنسان بسبب الهوى فليس أفضل من أن يستهدي الإنسان بهدي من سبقه من الأنبياء والصديقين على هذا الطريق الطويل، فان الشيطان يتربص بالإنسان الدوائر عند كل منعطف من منعطفات الطريق ليضلله وليدفعه عن الصراط المستقيم إلى متاهات الطريق.

---

١ ـ الموافقات في اصول الشريعة، إبراهيم بن موسى الشاطبي٢: ١٦٩، دار المعرفة ـ بيروت.

فإذا مشى الإنسان لوحده على هذا الطريق لا يأمن الشيطان والهوى، ولكن عندما يضع خطاه على مواضع خطى الأنبياء والمرسلين، ويربط نفسه بهذه المسيرة الربانية في التاريخ ينجو من وساوس الشيطان وإغراء الهوى، فلا ينالان منه شيئاً، ولا يصيبانه بسوء.

فقد يلتبس أمر الطريق على الإنسان إذا كان يسير وحده، أمّا حينما يشعر انه يقتدي بهدى الأنبياء، ويسير على طريقهم... يضع خطاه بثقة واطمئنان على طريق ذات الشوكة .

فقد أُخطئ أنا الطريق، لوحدي، ولكن لا يمكن أن يُخطئ الطريق هذا الحشد الهائل والمسير الطويل من الصفوة الصالحة من عباد الله من الأنبياء والمرسلين والصديقين والشهداء، فهم المعالم على الطريق، وعندما تحتف الطريق بمثل هذه المعالم والإشارات، فلا يمكن أن يضيع الإنسان أو يلتبس عليه الأمر .

ولأمر ما إذا دعونا الله تعالى في الصلاة أن يرزقنا الهداية إلى الصراط المستقيم ﴿**اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ**﴾ نعقب ذلك مباشرة بتشخيص الصراط المستقيم تشخيصاً عينياً خارجياً بالذين أنعم الله عليهم من عباده الصالحين ولم يغضب عليهم ولم يضلوا:
﴿**صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ**﴾.

وفي سورة الأنعام بعدما تستعرض السورة المباركة ذكر عدد من الأنبياء عليهم السلام منذ عهد إبراهيم أبي الأنبياء عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، يخاطب الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله بقوله: ﴿..**أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ**﴾.

العقبة الثانية: العوائق:

ولا تقلُّ خطورة العقبة الثانية عن العقبة الأُولى، ولا تقلُّ ضحاياها عنها.

إن قضية هذه العقبة هي العوائق التي تعيق حركة العاملين وتسبب لهم التخلف عن الحركة والتساقط أثناء الطريق.

وهذه العوائق على قسمين منها **عوائق موضوعية** مبثوثة على الطريق.

ومنها **عوائق ذاتية** كامنة في نفوس الناس، وكلتاهما تعيقان حركة العاملين في سبيل الله وإذا التقتا كان تأثيرهما قوياً بالغاً في نفوس العاملين.

العوائق الخارجية:

فمن العوائق الموضوعية طول الطريق، وبُعد الشقّة، والمتاعب التي يحفل بها هذا الطريق من البأساء والضراء.

والدعاة إلى الله يعجبهم أن يكون الطريق قصيراً مريحاً، آمناً من المخاوف والأخطار، ولكن الله تعالى يريد لعباده أن يسلكوا إليه طريق ذات الشوكة.

﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾[1].

فالطريق إلى الله إذا كان قصيراً مريحاً، آمناً، سهلا، لن يحقَّ الحق، ولن يقطع دابر الكافرين، ولن تتم السيادة والسلطان لدين الله على وجه الأرض، إلاّ حينما يسلك الدعاة طريق ذات الشوكة إلى الله.

وليست هذه البأساء والضراء خاصة بهذه الأُمّة، فهي سنّة الله في حياة العاملين جميعاً، لم يشذَّ منهم أحد عن هذه السنة الإلهية الصعبة.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم

١ ـ الأنفال: ٧.

مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء﴾[1].

ولو كان أمر هذا الطريق يسيراً، والمسافة قريبة لم يتخلف عن الطريق أحد من الناس، ولكن طول المسافة، وبُعد الشقّة، جعل الناس يتفرقون من حول الدعوة، ويتخلفون عن المسيرة.

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاَّتَّبَعُوكَ وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾[2].

العوائق الداخلية:

...وهناك عوائق ذاتية في داخل النفوس، وهي اخطر بكثير واكثر بكثير من العوائق الموضوعية القائمة على الطريق.

ومن خصائص هذه العوائق أنها تختفي ساعات اليسر وتبرز ساعات العسر والشدة، ولنقرأ هذه الآيات المباركات من سورة الأحزاب عن العوائق الكامنة في نفوس المؤمنين والتي تبرز في ساعات الشدة ولحظات العسر:

﴿..اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا

١ ـ البقرة: ٢١٤.

٢ ـ التوبة: ٤٢.

وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا﴾[1].

وفي نفس السياق:

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً * أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاء الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾[2].

ولا تخص هذه العوائق ونقاط الضعف نفوس المنافقين والضعاف من المؤمنين فقط، وإنما تشمل المؤمنين الذين امتحن الله قلوبهم للإيمان أحياناً.

فقد أثّرت نكسة أُحد في نفوس المؤمنين الأشداء الذين امتحن الله

١ ـ الأحزاب: ٩ ـ ١١.

٢ ـ الأحزاب: ١٨ ـ ١٩.

قلوبهم ونصرهم الله ببدر... إلاّ القليل منهم، الذين ثبتت نفوسهم في نكسة أُحد ولم يضعفوا ولم يتزلزلوا، وعن هؤلاء يقول تعالى بعد معركة أُحد:

﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[1].

وهذه بعض الأمثلة والشواهد من نقاط الضعف والعوائق الكامنة في نفوس الناس، والتي تختفي ساعات اليسر والإقبال وتبرز بروزاً قوياً ساعات العسر والشدة.

وإن هذه العوائق لتحيط الدعاة إلى الله، تعيق سيرهم، وتدفعهم إلى صفوف المتخلفين والمنافقين والضعفاء ولابدّ للدعاة من أن يروضوا أنفسهم كثيراً لاجتياز هذه العوائق، ما كان منها على الطريق، أو في داخل نفوسهم، وأن يدعوا الله تعالى ليمدهم من عنده بقوة وصبر وثبات، يستطيعون به أن يواجهوا هذه العقبات والفتن على طريق ذات الشوكة.

١ ـ آل عمران: ١٣٩ ـ ١٤٠.

﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[1].

كيف نكافح الخوف والضعف

وتعميق الإحساس بوراثة الأنبياء والصديقين، يمنح الإنسان مثل هذا الثبات والثقة والقوة لمواجهة التحديات والنكسات التي تحدث أحيانا في صفوف المؤمنين، ويحول دون أن تتحول النكسة إلى هزيمة نفسية.

وهذا إجمال لابدّ له من تفصيل وإشارة لابدّ لها من تحديد وتشخيص، واليك هذا التفصيل:

١ـ وعي رحلة المعاناة في التاريخ يثبّت الفؤاد ويخفّف وطأة المعاناة

قد تثير قوة العدو وضخامة إمكاناته وكثرة عدده وضعف إمكانات القلة المؤمنة احساساً بالضعف والنقص في نفوس المؤمنين، ولكن الأمر يختلف كثيراً عندما ينظر المؤمنون إلى أنفسهم من خلال موقعهم الحضاري من التاريخ، ويعرفون أنهم جزء لا يتجزأ من هذه

١ ـ البقرة: ٢٥٠.

المسيرة الربانية الممتدة على امتداد التاريخ كله. فإن هذا الخط هو الدين القيّم الذي قوّم مسيرة البشرية وحركة التاريخ منذ اليوم الأول إلى اليوم الحاضر.

ولم يزل هذا الخط منذ نشأته في عمق الفطرة البشرية إلى أن تولاه أنبياء الله بالرعاية في حياة البشرية، وقيّماً على حياة الإنسان وسلوكه وتاريخه.

وليست المعاناة والعذاب والتشريد والتهجير والقتل والفتنة... التي يجدها الداعية في حياته الرسالية من جانب أئمة الكفر وأتباعهم شيئاً جديداً في حياتهم... بل هي جزء من ميراثهم الضخم الذي يرثونه كابراً عن كابر.

وفي هذا التراث الكبير يجد المؤمن دعماً وسنداً روحياً يخرجه عن الشعور بالوحشة والانفراد والضعف ويجد في معاناة سلفه الذين سبقوه في الإيمان والدعوة عزاءً وسلوةً، ويرى فيهم قدوة صالحة لنفسه.

كل ذلك يبعث في نفوس المؤمنين العاملين الإحساس بالقوة والعمق والامتداد، ويشعرهم بالعزاء والسلوى، فيما يلقونه من عذاب، ويشعرهم بتأييد الله تعالى للمسيرة كلها.

رحلة الدعوة والمعاناة في سورة هود:

وسورة هود سورة عجيبة في هذا المضمار، ولقد وددت أن أتلو السورة كلّها على القراء.

ففي هذه السورة ينعكس خط الدعوة إلى الله: ﴿**أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ * وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ**﴾[1] وينعكس خط الإعراض والجحود: ﴿**أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ**﴾[2].

ثم تبيّن السورة المباركة استدراج الله تعالى لهؤلاء المعرضين والمشركين، وإمهالهم في تماديهم في غيهم وطغيانهم:

﴿**وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ**﴾[3].

ولعل صدر رسول الله ﷺ كان يضيق وسط هذا الإعراض والطغيان وتمادي القوم في غيهم وضلالهم: ﴿**فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ..**﴾[4] لو لا أن الله تعالى يذكّر نبيه أن هؤلاء

١ـ هود: ٢ ـ ٣.

٢ـ هود: ٥.

٣ـ هود: ٨.

٤ـ هود: ١٢.

على كثرة عددهم وقوتهم وطغيانهم لم يكونوا ليعجزوا الله تعالى... وأن الله إن أمهلهم استدراجاً لهم فلن ينساهم، ولن يفلتوا من قبضة قدرته وسلطانه تعالى: ﴿**أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ**﴾[1].

ثم ترسم السورة المباركة صورة حية لهذين الامتدادين والمعسكرين: الحضارة الإلهية والحضارة الجاهلية: ﴿**مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً**﴾[2].

فمهما كثر عددهم وزادت قوتهم فلا يزيدون على أن يكونوا كتلة مهملة من العُمْي والصمّ في مسار التاريخ، وأنّ الجبهة الأخرى هي الجبهة الواعية ذات الإحساس والإدراك «السمع والبصر».

ثم تبدأ السورة باستعراض المسيرة الإلهية الكبيرة في التاريخ في مقاطع متعددة وبشيء من التفصيل، وما لاقاه أنبياء الله ورسله خلال هذه المسيرة من عناء وعذاب وجحود وتكذيب واستهزاء من أقوامهم.

١ـ هود: ٢٠.

٢ـ هود: ٢٤.

فتذكر السورة معاناة نوح عليه السلام في دعوة قومه إلى الله، وتذكّر السورة رسول الله صلى الله عليه وآله:

بمعاناة هود عليه السلام في دعوة «عاد»،

ومعاناة صالح عليه السلام في دعوة «ثمود»،

ومعاناة إبراهيم عليه السلام في دعوة قومه،

ومعاناة لوط، ومعاناة شعيب عليه السلام في دعوة «أهل مدين» إلى الله،

ومعاناة موسى عليه السلام في دعوة قومه إلى الله، وتسترسل الآيات المباركة في شرح هذه المعاناة ورسمها.

ثم بعد هذه الجولة في تاريخ الإنسان وحضارته، ومعاناة الأنبياء، وعذابهم، وعناد المشركين، ورفضهم، وتعنتهم، ولجاجهم، وصبر الأنبياء، وجَلَدهم، واستقامتهم...

تخاطب السورة رسول الله صلى الله عليه وآله، الذي قد كان يضيق صدره بما يراه من تعنّت قومه وعنادهم بقوله تعالى:

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[1].

---

١ ـ هود: ١١٢.

وتحذّر الآية الكريمة المسلمين من أن يمسّهم ضعف في خضم الصراع ومرارته فيركنون إلى الذين ظلموا فتقول لهم:

﴿وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ﴾[1].

يقول ابن عباس: ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله آية كانت أشد عليه، ولا اشقّ من قوله تعالى: **﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾**، ولذلك قال لأصحابه حين قالوا له: «أسرع إليك الشيب يا رسول الله» قال: «شيبتني هود والواقعة»[2].

ثم يُعَلِّم الله تعالى نبيه أمرين يشدان أزره، ويربطان على قلبه، ويثبتان فؤاده في هذه المسيرة الصعبة الشائكة وهما:

الصبر والصلاة:

وما أدراك ما الصلاة والصبر؟

الصلاة في آناء الليل وأطراف النهار والدعاء، والتضرع إلى الله، ومواصلة ذكر الله تعالى، والصبر في الشدائد وعلى البأساء والضراء.

---

١ ـ هود: ١١٣.

٢ ـ بحار الأنوار ٥٢: ٣٣٦ ح ٧١.

﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ * وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1].

وقد ذَكَّرَ القرآن الكريم المؤمنين والدعاة إلى الله في أكثر من موضع بالاستعانة بالصبر والصلاة في اجتياز العقبات ومجابهة التحديات.

﴿وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ﴾[2].

﴿اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[3].

ثم تأتي بعد هذه الجولة الرسالية في تاريخ الدعوة ومسارها الطويل الشاق هذه الآية العجيبة التي تبين لنا السرّ في تذكير رسول الله ﷺ في خضمّ الصراع والمعاناة بهذا التاريخ الطويل المليء بالمعاناة والعذاب.

إن السر في هذا الاستعراض الطويل هو تثبيت قلب رسول الله ﷺ

---

١ ـ هود: ١١٤ ـ ١١٥.

٢ ـ البقرة: ٤٥.

٣ ـ البقرة: ١٥٣.

في معاناته الشاقة بأطراف من قصص الأنبياء والمرسلين عليهم السلام **﴿وَكُـلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾**[1].

وأن رسول الله ﷺ ليجد في استقامة الأنبياء وصبرهم على المحنة قوة وثباتاً في فؤاده على المضي في الصراع المصيري، ويجد في معاناة الأنبياء عليهم السلام عزاءً وسلوةً.

وإذا كان التذكير بالمسيرة التاريخية الواحدة للدعوة إلى الله وتعميق الإحساس بوحدة الخط والميراث يثبت فؤاد رسول الله ﷺ في خضم معركة الدعوة، وهو الذي شرح الله صدره وثبت فؤاده... فأحرى بنا نحن الدعاة إلى الله تعالى أن نستوحي من هذه المسيرة الإلهية الثبات، والعزم، والثقة بالنصر، والطمأنينة، والقدرة على مواجهة التحديات والمحن، وأن نتلمّس في هذه المسيرة الربانية الضاربة في أعماق التاريخ... اعماقنا الحضارية، ومن هذه الصفوة الصالحة المنتجبة من عباد الله... أصولنا وجذورنا وأسرتنا التي ننتمي إليها.

---

١ ـ هود: ١٢٠.

نماذج أخرى من رحلة العذاب والمعاناة:

وإن شئت أن تسترسل في هذا الهدي الإلهي، وترى كيف يثبّت الله تعالى فؤاد نبيه بمن سبقه من الأنبياء والمرسلين بما لاقوه من طول العناء وطول المعاناة، ومن عناء وعذاب واضطهاد فاتْلُ معي هذه الآيات المباركات:

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوط * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾[1].

﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾[2].

﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون﴾[3].

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾[4].

١ ـ الحج: ٤٢ ـ ٤٤.
٢ ـ الرعد: ٣٢.
٣ ـ الأنبياء: ٤١.
٤ ـ فاطر: ٤.

٢ـ رؤية المسيرة من خلال النتائج، لا من خلال معاناة الحركة.

نرجع ثانياً فنتساءل كيف نكافح الخوف والضعف في نفوسنا بتعميق الإحساس بوراثة الصالحين؟

فأقول: إنَّ تعميق الإحساس بالوراثة في نفس الداعية يمكّنه من فهم سنن الله تعالى وقوانينه في مسيرة الحضارة الإنسانية.

ذلك أن الدعاة ينظرون إلى المسيرة ليس من خلال عناء الساعة وابتلاءات الطريق، وإنما ينظرون إليها من خلال استعراض مسيرة الحضارات الطويل في التاريخ، ومن خلال تاريخ الصراع الطويل بين الخط الرباني والخطوط الجاهلية وما آل إليه هذا الصراع بين الحق والباطل.

إن الذي ينظر إلى التاريخ بهذه الرؤية الشاملة العميقة يستطيع أن ينظر إلى مسيرة المعاناة والعمل والدعوة نظرة شمولية واسعة ويكتشف السنن والقوانين الإلهية في مسير الحضارة، ويقضي في أمر المسيرة لا من خلال معاناة اللحظة، وإنما من خلال النتائج والعواقب.

أسلوبان في الرؤية:

والإنسان ينظر إلى المسيرة على نحوين:

فقد ينظر إلى المسيرة من خلال المعاناة والآلام والمتاعب التي تحفّ الطريق... وهذه هي النظرة القصيرة والرؤية المحدودة للطريق، لا تتجاوز اللحظة والساعة، وهي رؤية محفوفة بالأخطار، ولا يسلم صاحبها كثيراً من السقوط، ولا ينجو من الخوف واليأس والتعب في أغلب الأحوال.

ومن يدخله التعب واليأس والخوف لا يستطيع أن يواصل المسيرة، ويتخلف أو يسقط أثناء الطريق، إن عاجلا أو آجلا.

وقد ينظر إلى المسيرة من خلال النتائج والعواقب وهذه هي الرؤية الصحيحة للمسيرة، ونحن نلتقي في القرآن هذه الرؤية التي تمكننا من تجاوز سلبيات المعاناة والمرور بها في طريق العمل دون أن يصيبنا الخوف أو اليأس أو التعب ودون أن يشق علينا بعد الشقة.

فإن القرآن يحرص على النظر إلى معاناة الطريق وعذابها من خلال العواقب والنتائج وليس من خلال المعاناة والمواجهة والعمل.

وفيما يلي نتلو عليكم طرفاً من آيات القرآن التي تحرص أن تعلمنا أسلوب الرؤية الصحيح إلى المعاناة لاستيعابها وامتصاصها يقول

تعالى:

﴿فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾[1].

﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2].

﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدِّارِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[3].

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ * إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾[4].

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾[5].

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ

---

١ ـ محمد: ٣٥.

٢ ـ آل عمران: ١٣٩.

٣ ـ الأنعام: ١٣٥.

٤ ـ الأنبياء: ١٠٥ ـ ١٠٦.

٥ ـ النور: ٥٥.

جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾[1].

الذين يرزقهم الله هذا النهج من الرؤية البعيدة والنافذة يمكّنهم الله من النظر إلى الأحداث التاريخية لمسيرة الإنسان، نظرة شاملة غير محدودة، ويمكنهم من استنباط سنن هذه المسيرة ومعرفة مواضع النصر والهزيمة فيها.

أولئك يطمئنّون إلى حتمية النصر، ولا يساورهم في ذلك الشك للحظة واحدة، وحتى في أحرج الساعات وأحلك الظروف واشد الابتلاءات لا يمس الريب نفوسهم، ولا ينال من ثقتهم ويقينهم بحتمية النصر الإلهي وأن العاقبة للمتقين.

وهؤلاء هم الذين يستطيعون أن يتجاوزوا الحاضر المليء بالمعاناة إلى المستقبل المليء بالأمل.

إن نظرة الداعية إلى المسيرة نظرة ثاقبة نفاذة تنفذ من معاناة الحاضر إلى آفاق المستقبل، لا تحجبها معاناة الحال عن رؤية النصر الإلهي للقلّة المؤمنة على وجه الأرض،وكما كانت الرؤية البشرية المحدودة المدى للمسيرة تورث صاحبها الضعف والخوف واليأس

١ ـ الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣.

والعجز عن مواصلة الطريق فإن الرؤية الثاقبة البعيدة المدى التي يتمتع بها الداعية تمكنه من مواصلة الطريق وتمنحه الثقة والطمأنينة والقوة والشجاعة والأمل، وتنتزع من نفسه الخوف واليأس.

وهذه هي خاصية الرؤية عندما تتجاوز المعاناة إلى السنن والقوانين الإلهية في الحضارة والتاريخ.

إن الفلاح لو كان ينظر إلى عمله من خلال معاناة الحرث والغرس والسقي لترك المزرعة ومضى إلى شأنه... ولكنه عندما ينظر إلى هذا الجهد الشاق الذي يبذله في المزرعة من خلال سنن الله تعالى... يمضي في عمله دون أن يكلّ أو يمسّه تعب أو لغوب.

ولنعد إلى القرآن من جديد فإنّه معين لا ينضب للدعاة إلى الله، إن القرآن الكريم يرسم هذه المسيرة الشاقة للدعوة إلى الله والساحة الحامية بالصراع بين الحق والباطل ولكن لا من خلال معاناة العاملين، وإنما من خلال سنن الله تعالى في التاريخ، في حتمية النصر للفئة المؤمنة و حتمية الهلاك والسقوط لجبهة الشرك.

وإن القرآن ليحرص على أن يحوّل نظر الداعية من الحال إلى المستقبل ومن المعاناة إلى سنن الله من خلال استعراض مسيرة التوحيد والشرك، واستعراض ساحات الصراع بين هاتين الجبهتين ولنستمع إلى

كلام الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾[1].

اجل ليس فقط يوم يقوم الأشهاد وإنما ينصرهم في الحياة الدنيا ايضاً.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَلَمَّا جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون * فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾[2].

ترى كيف يستعرض القرآن مسيرة الشرك والظلم استعراضاً واسعاً، ويطويها طياً سريعاً، ويعلن بأنّ عاقبتهم كان الخسران والهلاك، وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون، وإنّ هذه العاقبة لم تكن عن عجز أو ضعف مادي منهم، فقد كانوا أشد من مشركي عصر رسول الله ﷺ

١ ـ غافر: ٥١.

٢ ـ غافر: ٨٢ ـ ٨٥.

قوة وآثاراً في الأرض ومع ذلك فلم تغن عنهم قوتهم شيئاً وادركهم العذاب والهلاك.

ثم يعلن القرآن أن ذلك لم يكن عن صدفة، ولم يحدث عفواً، وإنما هو سنّة ثابتة لله تعالى في الذين كفروا وعتوا عن أمر ربهم جميعاً من دون استثناء ﴿سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾.

ثم استمع إلى هذه الآيات المباركات من سورة فاطر:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ فَلَمَّا جَاءهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُورًا * اسْتِكْبَارًا فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً * أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾[1].

إنهم نفروا من الأنبياء نفوراً لما جاءوهم استكباراً في الأرض،

١ ـ فاطر: ٤٢ ـ ٤٤.

ومكر السيِّئ... ثم يبيّن القرآن بعد ذلك مباشرة السُنَّة الإلهية القائمة في الذين يمكرون مكر السوء **﴿اسْتِكْبَارًا فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾** ثم يربط القرآن بعد ذلك هذه المسيرة التي تبدأ بالاستكبار والمكر وتنتهي بالمحق والهلاك... بسنن الله تعالى، في تكرار وتأكيد حتى لا يتصور أحد من الطغاة والمتمردين أن أولئك لو حاق بهم مكر السوء فمن الممكن أنه ينفلت هو من دائرة السوء هذه التي تحيط بالظالمين:

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ﴾

﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾

ثم تأتي بعد هذه التأكيدات الثلاثة المتوالية على حاكمية السنن الإلهية في حياة الإنسان وتاريخه دعوة أخرى لاستعراض تاريخ ومسيرة الجاهلية المتمردة على حكم الله وشريعته:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ﴾.

ثم استمع إلى هذه الآيات المباركات من سورة ق:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ * وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ * فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾[1].

وهو مشهد عجيب تقترن السنن الإلهية في التاريخ والحضارة بالسنن الإلهية في الكون، وتمتزج فيه السنن الإلهية في الكون بسنن الله في المجتمع.

ومن خلال هذه الرؤية الشاملة الحضارية الكونية لسنن الله تعالى يدعو الله تعالى نبيه لمواصلة الطريق، والاستمرار والثبات، ويعلّمه أمرين، سبق أن ذكرناهما من قبل وهما الصبر والصلاة.

﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾.

ومن عجب أن الأمر بالصبر والصلاة يتكرر كثيراً عبر ذكر الدعوة إلى الله تعالى وما يواجه الدعاة إلى الله من متاعب وعناء في الطريق.

---

١ ـ سورة ق: ٣٦ ـ ٤٠.

الصبر على تحمل سنن الله، وعدم استعجال الأمور قبل أوانها، واللّجوء والتضرع إلى الله «الصلاة» ليسد ما في نفوسنا من عجز ونقص بالصبر والاستقامة والتأييد.

المعاناة سنة إلهية لكل أطراف الصراع

والقرآن عندما يمدّ نظر الداعية إلى البعيد، لينفذ من الحاضر إلى المستقبل ومن المعاناة إلى آفاق الأمل... لا يريد أن يفصله فصلا كاملا عن لحظة المعاناة، وإنما يوجّه تصور الداعية وعقله حتى لا تستغرقه المعاناة عن معايشة سنن الله والنظر إلى مستقبل الدعوة وعاقبتها.

فيوجه نظره أولا إلى أن هذه المعاناة حقيقة قائمة وأمر واقع في كل من المعسكرين، من دون استثناء، وليست هي من خصائص مسيرة الدعوة إلى الله، وإنما المعاناة تشمل المعسكرين جميعاً.

فما دام هناك صراع فهناك معاناة، والعناء يتوزع على طرفي الصراع، من دون فرق، وليس لأحد من الطرفين حصانة من المعاناة.

﴿وَلاَ تَهِنُواْ فِي ابْتِغَاء الْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا

تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللّه مَا لاَ يَرْجُونَ﴾[1].

﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾.

فإن تكونوا تألمون، فإنهم يألمون كما تألمون وإن يكن قد أصابكم قرح فقد أصاب القوم مثله، وتلك ضريبة الصراع والحرب... وهذه الضريبة تتوزع على كل الأطراف من دون استثناء.

وأولئك ينفقون كما تنفقون أنتم، فلابدّ في الصراع من إنفاق من الأموال والبنين والأنفس، ولا يخصكم هذا الإنفاق، إلاّ أن هذا الإنفاق يعود عليكم بنصر الله في الدنيا وبرحمته الواسعة يوم يقوم الأشهاد، ولا يعود عليهم إلاّ بالحسرة والخيبة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾[2].

---

١ ـ النساء: ١٠٤.

٢ ـ الأنفال: ٣٦.

التمحيص والتكامل بالمعاناة:

هذا **أولاً**...

ويوجه القرآن نظرنا **ثانياً** إلى أن المعاناة هي الأداة التي تتكامل بها شخصية المؤمنين، ويصلب عودهم، وتعلو بها كلمة الله على وجه الأرض وفي حياة الإنسان، وعبر هذه الآلام والمتاعب والأشواك تعود الحاكمية على وجه الأرض لله ولرسوله ولأوليائه.

إن مسيرة المحنة هي مسيرة تكامل الإنسان ونموه، وهي مسيرة تكامل الأُمّة ونموها. وإن الإنسان ليحب ـ إذا ارجع إليه أمر الاختيار ـ الطريق غير ذات الشوكة، والعبور من الممرات والطرق الآمنة المحفوفة بالعافية في طريقه إلى الله تعالى، ويحب أن ينال الغاية من ايسر الطرق، والنصر بأيسر الأسباب، دون أن تشوكه شوكة أو تنتابه محنة... ولكن الله تعالى، وهو العليم بما يصلح عباده ويفسدهم، يعلم أن تكامل الإنسان افراداً وجماعات وأُمَماً لا يتم إلاّ عبر طريق المحنة، وأن تحقيق سيادة كلمة الله على وجه الأرض لا يتم إلاّ عبر هذه المعاناة الطويلة.

ولقد كان المسلمون عند الخروج إلى موقعة بدر للغارة على قافلة

قريش التجارية يتمنّون أن يعودوا من بدر بالغنيمة الباردة وبالمال والسلطان والقوة، دون أن يمسّهم تعب، أو يصيبهم قرح، فعلّمهم الله تعالى أنهم لا ينالون ما يريده الله تعالى لهم من تحقيق السيادة والسلطان لهذا الدين على وجه الأرض والقضاء على سلطان الباطل دون أن يجتازوا طريق ذات الشوكة إلى الله.

﴿**وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتِيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ**﴾[1].

ويذكّر القرآن المسلمين بعد معركة أحد أن القرح الذي يصيبهم في طريق الدعوة إلى الله لابدّ منه في تمحيصهم وتطهيرهم وتزكيتهم، كما لابدّ منه في محق الآخرين... ومن غير هذه القروح لا يتم التمحيص والتزكية في الجماعة المؤمنة، كما لا يتم المحق والهلاك والسقوط لمعسكر الكفر:

﴿**إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ**

١ ـ الأنفال: ٧ ـ ٨.

الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾.

وإن التمحيص ليتم في صورتين:

في خط عمودي في تصفية المؤمنين، فان الابتلاءات والمحن والشدائد تصفّي الإنسان وتهذبه من كل الشوائب، ولا يوجد في حياة الإنسان عامل افضل من عامل الابتلاء في تصفية وتهذيب الذات وتخليصها من سلطان الهوى ومن حب الدنيا.

وتصفية وتمحيص آخر في الخط الافقي في داخل المجتمع، وذلك بتخليص المجتمع الإسلامي من العناصر الضعيفة والمنافقة التي تواكب مسيرة المجتمع الإسلامية وحركته إلى الله.

فان حالة اليسر والرفاه في المجتمع الإسلامي تجمع حوله الكثير من العناصر الضعيفة والمنافقة والإنتهازية، ومن الطبيعي أن هذا التورّم يثقل حركة المجتمع الإسلامي إلى الله ويعيق تحركه... فإذا جاء الابتلاء، واشتدّت المحنة تساقطت هذه العناصر المعيقة، وتخلصت المسيرة من هذه العناصر المثبطة للحركة والمعيقة لها.

الطريق إلى الجنة محفوف بالبلاء

ثم يذكّر القرآن الإنسان بأن لحظات المعاناة هي الذخيرة التي يدخرها الإنسان للقاء الله، وهي التي تؤهّله للقاء الله... فليس يدخل الإنسان الجنة دون أن يجتاز طريق ذات الشوكة، ودون أن يتحمل في الله الجهد والعناء، ودون أن يؤذى في الله ويضطهد في الله، يصبر على الأذى والإضطهاد في الله، فالطريق إلى رضوان الله في الجنة والى لقاء الله محفوف بالعناء والفتنة والابتلاء.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّه أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّه قَرِيبٌ﴾[١].

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾[٢].

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ

---

١ ـ البقرة: ٢١٤.

٢ ـ آل عمران: ١٤٢.

إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[1].

وفي سورة الصف يذكّر القرآن المؤمنين بأن الجهاد بالمال والنفس هو الطريق إلى غفران الذنوب، ومرضاة الله تعالى، والدخول إلى الجنة، ثم يذكر النصر والفتح بعد ذلك كنتيجة ثانوية للجهاد.

أمّا **الغاية الأُولى** من جهاد النفس والمال فهو مرضاة الله والدخول إلى الجنة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

إن النتيجة الأُولى للجهاد بالأموال والأنفس هو الجنة، والجنة هي الفوز العظيم...

١ ـ البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧.

٢ ـ الصف: ١٠ ـ ١٣.

وأمّا **الغاية الثانية** وهي النصر والفتح فيعبر القرآن عنه بـ **﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا﴾** وكأنه فائدة ونتيجة ثانوية للجهاد.

وانظروا ـ ولا أقول اقرأوا ـ إلى هذه اللوحة الرائعة المتدفقة بالحياة والحركة، وتأملوا كيف يرسم القرآن مسيرة الإنسان إلى الله تعالى ومرضاته في الجنة من خلال رحلة المعاناة والعذاب.

﴿..ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلاَ يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[1].

وبهذه الطريقة يرسم القرآن دورة المعاناة في حياة الفرد المؤمن والأُمّة المؤمنة، ويعالج مسألة الابتلاء والمعاناة في حياة الإنسان، ويوجّه الإنسان لفهم الابتلاء وطريقة التعامل معه.

ونعود من جديد إلى الحديث عن سنن الله تعالى في المسيرة وضرورة وعي ومعايشة السنن الإلهية في هذه الرحلة.

١ ـ التوبة: ١٢٠ ـ ١٢١.

فلا يجوز أن تستغرقنا لحظات الابتلاءات والمعاناة، وتحجبنا عن سنن الله في المسيرة، والإنسان إذا لم يحسن التصرف ساعة الابتلاء ولم يعرف كيف يتعامل مع المحن والابتلاء تحجبه المعاناة عن سنن الله وقوانين الحركة، وإذا نظر الإنسان إلى المسيرة الكبرى من خلال هذه اللحظات يغلبه التعب واليأس والخوف ويُؤْثِرُ العافية والحياة الآمنة والوديعة على السير على طريق ذات الشوكة.

ولكي لا تحجب لحظة المحنة والمعاناة الإنسان عن رؤية سنن الله تعالى في المسيرة وعن رؤية المشيئة الإلهية في حتمية النصر للقلة المؤمنة... يحوّل القرآن كثيراً نظر المؤمنين من الحاضر إلى الماضي والمستقبل، إلى الماضي في استعراض أطراف وقصص من هذه المسيرة، والى آفاق المستقبل البعيد في إعطاء الاقضية والأحكام الإلهية النهائية في الحضارات والأُمم والتاريخ.

عندما يتزود الداعية بهذه الرؤية النفاذة، الثاقبة، بعيدة المدى يستطيع أن يَعبُر معاناة الحاضر إلى سنن الله العامة فتطمئن قدماه على الطريق، ويربط الله على قلبه، ويثبت للمحنة، ويواجه التحديات بصبر وثبات، من دون خوف وجزع. انظروا إلى هذه الصورة المستقبلية الرائعة لحتمية النصر، والتي تنزل على المسلمين ساعة النكسة والمحنة

في أُحد.

﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

وقد نقلت هذه الآية المسلمين في أُحد، وهم يعيشون مرارة النكسة والمحنة... إلى الآفاق البعيدة للمستقبل والى السنن الإلهية في حتمية النصر للمؤمنين «إن كانوا مؤمنين».

فتحوّلت «النكسة» في نفوسهم إلى شعور قوي بالاستعلاء والقوة والثقة المطلقة بتأييد الله، وتحول هذا الشعور في نفوسهم إلى تحرك وعمل متصل وعزم على مواصلة الطريق.

وحدة المسيرة وطول النفس في العمل

ونعود ثالثاً إلى دراسة مكافحة حالة الخوف والضعف واليأس في نفوسنا من خلال تعميق الإحساس بوراثة الصالحين في نفوسنا فأقول: إن تعميق الإحساس بالوراثة في نفس الإنسان يفيد في تحسيس الداعية بوحدة المسيرة وإن هذه المسيرة على امتدادها الطويل ومراحلها الكثيرة مسيرة واحدة يتوارثها الأبناء عن الآباء جيلا بعد جيل، ويتمتع فيها الأبناء بما ورثوا من مجد الآباء وجهدهم وعملهم وتراثهم، كما أن عليهم أن يورثوا أبناءهم هذا التراث والمجد.

فإنّ هذه المسيرة سلسلة واحدة، مهمتها واحدة، ومنطلقها واحد، وغايتها واحدة، وخطها واحد، مهما تعددت حلقاتها... وهي تشكل في التاريخ الحضاري أسرة واحدة بالدقة، وليس من المفروض في الأُسرة الواحدة في مسير التاريخ أن تتحقق أهدافها مرة واحدة، وأن يبلغ كل حلقة من حلقاتها كل أهداف السلسلة وإنما الذي يجري في مثلها إن يُمهّد كل حلقة من حلقاتها للحلقة التي تأتي من بعدها، وتُعدُّ هذه الحلقات جميعاً للغاية العليا التي تعمل لها، فيشعر كل عضو في هذه المسيرة أنه حلقة واحدة من حلقات كثيرة في سلسلة مباركة ممتدة من آدم عليه السلام إلى أن يأذن الله تعالى للدنيا بالإنتهاء.

فيطول نَفَسُ الداعية في العمل، وطول النفس من أهم عوامل الثبات والنصر، فهو لا يعمل ليقتطف ثمار عمله في حياته القصيرة، وإنّما يعمل ضمن سلسلة ممتدة طويلة من العاملين الدعاة إلى الله، ويكفيه أن يجني ثمار عمله الجيل الرابع أو العاشر أو اكثر أو اقل من بعده، وإن الداعية إلى الله ليحقق كل أهدافه إذا كان يحصد أبناؤه أو أبناء أبنائه حصاد عمله، كما أنه هو يجني ثمار جهود أسلافه وآبائه.

وليس كذلك من يعمل لغير الله، وعلى غير هذه المسيرة، فهو يعمل لنفسه وللحظة المتعة، وليجني ثمرة عمله في خلال عمره

القصير، ومن الطبيعي أن يكون نَفَسُه قصيراً في العمل.

ولقد كنّا نقرأ في القصص الحكمية القديمة «أن ملكاً مر على شيخ طاعن في السن يغرس فسيلا للنخل فوقف عنده متعجباً يسأله لمن يغرس هذا الفسيل وهو في هذا الحد من العمر، فأجابه الفلاح الطاعن في السن: أيها الملك غرس آباؤنا فأكلنا، ونغرس نحن ليأكل أبناؤنا فاعجب الملك جوابه... إلى آخر القصة».

والأمر كذلك في مسيرة الحضارة الإلهية الموروثة من نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام... أنهم غرسوا غرسة التوحيد فجنينا ثمار عملهم وجهودهم، ونغرس نحن للأجيال القادمة ليجنوا ثمار عملنا.

فقد اجتبانا الله تعالى جيلا بعد جيل لرسالته، واودع لدينا رسالته نتعاقب عليها جيلا بعد جيل، فيستلمها كل جيل منا من الجيل السابق ليسلمها إلى الجيل الذي يأتي من بعده.

وهذا هو الجانب الإلهي من هذا الميراث، والى جانب هذا الميراث الإلهي فان الأجيال المتعاقبة على هذا الميراث تتوارث فيما بينها خبرات العمل والدعوة.

فإن محتوى الدعوة إلى الله تعالى واحد، لا يختلف من جيل إلى

جيل، ولكن خبرة الدعاة إلى الله في الدعوة تتكامل بالتأكيد، عدا من عصمهم الله بالوحي، وكل جيل من الدعاة يورث الجيل الذي يأتي من بعده إلى جانب هذا الميراث الإلهي خبرته التي اكتسبها من خلال العمل و معاناة الدعوة إلى الله.

فإن الدعوة إلى الله تعالى من أكثر الأمور تعقيداً، والإنسان الداعية يحتاج إلى الكثير من التعقل، والفهم، والنضج السياسي، ومعرفة أساليب التعامل مع الناس، ووعي الظروف الاجتماعية المختلفة، وطريقة مواجهة الظالمين، وشجاعة المواجهة والإقدام، والقدرة على ضبط النفس والعواطف، ويحتاج إلى المداراة والمرونة، والجديّة، والقوة واللّين... يحتاج إلى ذلك كله والى غيره من المؤهلات والخبرات، ولا يمكن أن تكون هذه المؤهلات والخبرات الضرورية للدعوة والجهاد في جيل واحد، وإنما تتكامل في شخصية الداعية عبر الأجيال، وعبر خوض ساحات الصراع والجهاد والمواجهة مع أئمة الكفر والجاهلية، وتساهم هذه الأحداث التي تشكل التاريخ الحضاري والرسالي للإنسان في تكوين خبرات ومؤهلات الداعية في ممارسته الدعوة إلى الله والجهاد في سبيل الله.

ومن المهم جداً أن ينتبه الدعاة إلى الله إلى الأهمية الحياتية لهذا

الميراث الكبير في مجال الدعوة إلى الله. فلا يغفل أجيال الدعاة قيمة وأهمية الخبرة التي أورثها أسلافهم إياهم في مجال الدعوة.

وعلى الدعاة إلى الله أن يقرأوا في هذا المجال بإمعان واهتمام قصص الأنبياء في القرآن والحديث وسيرة رسول الله ﷺ وسيرة الأئمة (عليهم السلام) ومن والاهم من العلماء العاملين والدعاة إلى الله، من عباد الله الصالحين.

الإمام المهدي (عجل الله فرجه) وارث الأنبياء والمرسلين

والذي يتابع النصوص الإسلامية الواردة في ظهور الإمام المهدي (عجل الله فرجه)، وقيام الدولة الإلهية الكبرى في عهده على أنقاض الجاهليات البشرية الواسعة... الذي يتابع هذه النصوص يجد أن دولة الإمام المهدي هي الدولة الوارثة لكل القيم والتراث الذي جاء به الأنبياء والمرسلون والأئمة (عليهم السلام) .

والحضارة الجديدة التي يقيمها المهدي من آل محمد (عليهم السلام) على وجه الأرض، ليست سوى امتداد للحضارة الإلهية التي جاء بها الأنبياء والمرسلون والأئمة الهداة (عليهم السلام)، وعودة لتلك الحضارة إلى صلب الحياة الاجتماعية من جديد، وهي ميراث الأنبياء والصالحين.

وكل ما في الأمر من جديد في هذا الطور الجديد من الحياة الذي يقيمه الإمام المهدي عليه السلام هو النضج والرشد العقلي للإنسان في هذه المرحلة من الحياة.

عن أبي خالد الكابلي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «إذا قام قائمنا وضع يده على رؤوس العباد فجمع به عقولهم واكمل به أخلاقهم»[1].

وهذا النص يكشف لنا عن النضج العقلي والأخلاقي الذي يميّز المجتمع في هذه المرحلة بعد الصراع العنيف والحاسم بين المعسكر الإسلامي ومعسكر الشرك والنفاق.

ونحتمل أن يكون مرور الإنسان بمراحل التاريخ المختلفة واختيار الألوان المختلفة من الأنظمة والحضارات، وفشل، وسقوط هذه الحضارات والأنظمة الجاهلية، نظاماً بعد نظام، وحضارة بعد حضارة، من أسباب هذا النضج العقلي والأخلاقي الذي يشير إليه النص الآنف.

وروي في هذا المعنى عن أبي جعفر عليه السلام: «دولتنا آخر الدول، ولم يبق أهل بيت لهم دولة إلاّ ملكوا قبلنا لئلا يقولوا إذا رأوا سيرتنا: إذا ملكنا سرنا بمثل سيرة هؤلاء، وهو قول الله تعالى: ﴿**وَالْعَاقِبَةُ**

١ ـ منتخب الأثر: ٣٠٨، عن الإرشاد للمفيد.

لِلْمُتَّقِينَ﴾»[1].

فهذه الدولة إذن بالإضافة إلى عصمة قيادتها تستجمع خلاصة تجارب ووعي ونضج هذه المسيرة الربانية والسائرين على هذا الطريق.

وورد في نص آخر ما يتضمن هذا النضج العقلي بصيغة رمزية.

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «العلم سبعة وعشرون حرفا فجميع ما جاءت به الرسل حرفان فلم يعرف الناس حتى اليوم غير الحرفين، فإذا قام قائمنا أخرج الخمسة والعشرين حرفا فبثها في الناس، وضم إليها الحرفين، حتى يبثها سبعة وعشرين حرفا»[2].

ولاشكّ أن النص بهذه الصورة من النصوص الرمزية التي يحتاج تفسيره إلى تذوق النص من الناحية الأدبية.

وسبعة وعشرون هي العدد الكامل للأحرف العربية وعليه فإن سبعة وعشرين حرفاً يعني كمال المعرفة والعلم، وكمال النضج العقلي.

١ ـ بحار الأنوار ٥٢: ٣٣٢ح٥٨.
٢ ـ بحار الأنوار ٥٢: ٣٣٦ح٧٣.

وما رزق الناس من النضج العقلي قبل هذا الطور الجديد من الحياة لا يزيد على جزئين فقط من أحرف العلم والمعرفة أمّا بقية أجزاء المعرفة والنضج العقلي فلا تتم للإنسان إلاّ في هذه المرحلة الجديدة من الحضارة والحياة في عهد المهدي من آل محمد عليه السلام.

وفي مثل هذه المرحلة من النضج العقلي والفكري والأخلاقي يتم نقل ميراثين إلى المجتمع الإسلامي على يد الإمام المهدي عجل الله فرجه.

ميراث القوة والسلطان من الظالمين والجبابرة، وميراث العلم والحكمة والقيم من الأنبياء والمرسلين والصالحين.

عن الميراث الأول يقول أميرالمؤمنين عليه السلام «لتعطفن الدنيا علينا بعد شماسها عطف الضروس على ولدها» وتلا عقيب ذلك: ﴿**وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ**﴾[1].

يقول محمد عبده في شرح هذه الفقرة: «الشماس ـ بالكسر ـ امتناع ظهر الفرس من الركوب، والضروس ـ بفتح فضم ـ الناقة السيئة تعض حالبها: أي أن الدنيا ستنقاد لنا بعد جموحها، وتلين بعد خشونتها، كما

١ ـ نهج البلاغة ٤: ٤٧، حكمة ٢٠٩.

تنعطف الناقة على ولدها، وإن أبت على الحالب».

وإقبال الدنيا هو إقبال القوة والسلطان والمال، وهو ميراث الصالحين من الظالمين واستشهاد الإمام عليه السلام بقوله تعالى: ﴿**وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ**﴾ يؤكد هذا المعنى:

ويقول عليه السلام: «وتخرج له الأرض أفاليذ أكبادها وتلقي إليه سلماً مقاليدها»[1]، قال العلاّمة المجلسي رحمه الله في شرح هذه الفقرة: الأفاليذ ـ جمع أفلاذ، وهي جمع فلذة ـ وهي القطعة من الكبد، كناية عن الكنوز التي تظهر للقائم عليه السلام.

والميراث الآخر في هذه الحضارة التي يقيمها المهدي من آل محمد هو ميراث الأنبياء والمرسلين عليهم السلام. وهو الميراث المعنوي في هذه الدولة فيما كان الميراث الأول هو الميراث المادي.

عن أبي خالد الكابلي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال أبو جعفر: «والله لكأني أنظر إلى القائم عليه السلام وقد اسند ظهره إلى الحجر ثم ينشد الله حقه ثم يقول:

١ ـ نهج البلاغة ٢: ٢١، خطبة ١٣٨، بحار الأنوار ٣١: ٥٥١.

أيها الناس من يحاجّني في الله فأنا أولى بالله.

أيها الناس من يحاجني في آدم فأنا أولى بآدم.

أيها الناس من يحاجني في نوح فأنا أولى بنوح.

أيها الناس من يحاجني في إبراهيم فأنا أولى بإبراهيم.

أيها الناس من يحاجني في موسى فأنا أولى بموسى.

أيها الناس من يحاجني في عيسى فأنا أولى بعيسى.

أيها الناس من يحاجني في محمد فأنا أولى بمحمد .

أيها الناس من يحاجني في كتاب الله فأنا أولى بكتاب الله»[1].

وروى حريز عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «لن تذهب الدنيا حتى يخرج رجل منا أهل البيت يحكم بحكم داود وآل داود، لا يسأل الناس بينة»[2].

ومن قراءة هذه النصوص وأمثالها نلمس بصورة دقيقة العلاقة الوثيقة التي تربط الدولة والحضارة التي يقيمها المهدي من آل محمد عليه السلام بالأصول والقيم والمعارف والحكم التي جاء بها

١ ـ بحار الأنوار ٥٢: ٣١٩.

٢ ـ مستدرك الوسائل ١٧: ٣٦٤ عن بصائر الدرجات: ٢٧٩ الباب ١٥ ح ٤.

الأنبياء عليهم السلام من قبل.

وبذلك يكون الإمام المهدي عجل الله فرجه بقية حجج الله وخليفة أنبياء الله في أرضه، يقول أمير المؤمنين عليه السلام كما ورد في نهج البلاغة في الإمام المهدي عليه السلام:

«قد لبس للحكمة جنتها، وأخذها بجميع أدبها، من الإقبال عليها، والمعرفة بها، والتفرغ لها... وضرب بعسيب ذنبه والصق الأرض بجرانه، بقية من بقايا حجته، خليفة من خلائف أنبيائه»[1].

فالإمام ـ إذن ـ بقية حجج الله وخليفة أنبيائه، ودولته التي يقيمها هي ميراث أنبياء الله.

ဢဃ

١ ـ نهج البلاغة ٢: ١٣٠، شرح محمد عبده.

الفهرس

ﮋﮊ